

الثقافة و الهوية في فكر مالك بن نبي

د.علي قریش

جامعة الجلالی الیابس سیدی بلعباس

في التاريخ ، فقد صار مؤكداً أن التركة الكبرى التي ورثناها جيلاً من (المتعلمين)، ورثنا عنها التنافس على المقاعد الأولى... كل هذه الفئات التي يغذيها الاستعمار و لا يمكن أن نضع لها حد إلا بتحديد الثقافة))⁽¹¹⁾ لأن مفهوم الثقافة من غير تحديد لها قد تتسرب إليها قيم فكرية و أخلاقية واجتماعية لا تنسجم مع تاريخ المسلم ومحيطه و قيمه الثقافية والحضارية ، ومن غير ذلك ، يبقى المسلم مولعاً بتقليد الآخر \ الغالب الذي يحاول أن ينزع عنه تلك (القابلية الحضارية) التي خلقها الإسلام في نفوس أعراب البادية ((فتحولوا من (جاهليين) إلى حماة للحضارة و متشربين لها ، ثم مساهمين فيها بعد ذلك))⁽¹²⁾، ومن هنا ، يقول مالك بن نبي ((لا يمكن لنا أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة ، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه ، و الثقافة بما تتضمنه من فكرة دينية انتظمت الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها الإنسانية...))⁽¹³⁾، والثقافة تتعرف عند مالك بن نبي على أنها ((مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته و تصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه ... و المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه و شخصيته))⁽¹⁴⁾، و لأن تحديد الثقافة أمر في غاية الأهمية ، فقد وُفّر لها مالك بن نبي صفحات كثيرة في كتابه (مشكلة

(الثقافة) ،وهذا ليس تكرارا اعتباطيا، و إنما هو جوهر الثقافة ، به تتحدد معالم أيّة ثقافة، و لهذا ، يقول مالك بن نبي عن الثقافة

((فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة ، وعقريات متقاربة

و تقاليد متكاملة، وأذواق متناسبة و عواطف متشابهة ، و بعبارة جامعة : هي كل ما يعطي الحضارة سميتها الخاصّة و يحدد قطبيها: من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي، أو عقلية (ديكارت) و روحانية (جان دارك) ، و هذا هو معنى الثقافة في التاريخ))⁽¹⁵⁾ ولعل أبرز ما يستوقفنا في هذا النصّ أن صاحب النصّ لا يقصي السمات الخاصة لثقافة الآخر، كان من كان هذا الآخر ، لأن مالك بن نبي يستمد مرجعية تفكيره من (الظاهرة القرآنية) باعتبارها منظومة أخلاقية وثقافية وفكرية و روحانية و اجتماعية .

و تشريعية وسطية ولكن انعدام المنطق العملي في جوانب كثيرة من حياة الإنسان المسلم ، و(اللافعالية) تجعلانه لا يعيش ثقافته في حياته.

يقول: ((نحن أحوج ما نكون إلى المنطق [المنطق العملي] لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا ،غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة و الانتباه شيء يكاد يكون معدوما))⁽¹⁶⁾، ((قد يقال أن المجتمع الاسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن ،ومع ذلك من الأصوب أن نقول إنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي))⁽¹⁷⁾ ويسوق مالك بن نبي بفكر ناقد ومنهج موضوعي مثالا واقعا للفروق الأساسية بين العقل المجرد عند الإنسان الأوروبي .

فيقول: ((ونظرة إلى واقعنا لنرى الرجل الأوروبي و الرجل المسلم أيهما ذو نشاط و عزم و حركة دائبة ؟ [ليجيب] :ليس هو الرجل المسلم بكل أسف ،وهو الذي يأمره القرآن ، كما يعرف ذلك تماما بقوله تعالى: « وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ » لقمان 31\19 و قوله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا

«لعمان 31\18 ((⁽¹⁸⁾، و لن يكون للثقافة التي تحدّد السمات الحضارية للفرد المسلم أثر إلا إذا توافق أو تطابق العقل المجرد مع العقل العملي أو التطبيقي في سلوك المسلم ، وهذا ما يحرص مالك بن نبي على إبرازه ، فيقول: ((... إنّ الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة و لكن منطق العمل و الحركة، وهو [المسلم] لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجزّدا ، بل أكثر من ذلك ييغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً ، و يقول كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحوّل في الحال إلى عمل و نشاط))⁽¹⁹⁾، ومنطق التوافق بين العقل المجرد والمنطق العملي أي بين الملفوظ من الأفكار وبين العمل والحركة ، ينسجم تماماً الانسجام ، و يتطابق تمام التطابق مع قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »⁽²⁰⁾ فهذه المرجعية المركزية للثقافة التي انطبعت في فكر مالك بن نبي و في وجدانه لم تكن لترى النور في كتاباته لو لم يكن مالك بن نبي متشبّعا بقيم الإسلام الثقافية و بوسطية هذه القيم، و ما لم يكن متشبّعا. أيضا ((بصرامة المنطق الموضوعي)) وصرامة المنهج العلمي الدقيق.

يقول عنه الخبير الاقتصادي الليبي ، رفعت الفنيش الذي رافق مالك بن نبي أكثر من عقد من الزمن: ((عرفته بروحانية الصوفي، و أصالة عالم الاجتماع، ودقة المهندس، وحماسة الداعية ، وصرامة المنطق الموضوعي، وكرامة الزاهد، وشراسة المحارب بالعلم))⁽²¹⁾، فهذه الشهادة تؤرخ لفكر مالك بن نبي و تؤرخ لنظرته العميقة إلى الثقافة و الهوية اللذين يستمدان روافدهما من ((الإسلام المتحرك)). على حدّ تعبير مالك بن نبي نفسه ـ الذي يوفّر ((قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي)).

يقول: ((فقوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي موجودة بكل وضوح في الإسلام ، ولكن أي إسلام؟ ... الإسلام المتحرك في عقولنا و سلوكنا و المنبعث في صورة إسلام اجتماعي))⁽²²⁾.

ويقول: ((وقوة التماسك هذه جديدة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة ، وفي يدها . ضمنا . لذلك . تجربة عمرها ألف عام و حضارة ولدت على أرض قاحلة، وسط البدو رجال الفطرة والصحراء))⁽²³⁾ ، و يُستوحى مما قاله مالك بن نبي أن ((قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي)) التي تحدث عنها مالك بن نبي جديدة . أيضا . بأن تُرسخ في المجتمع الإسلامي هويته في عصر العولمة الذي أصبحت فيه الهوية الإسلامية مستهدفة في المقام الأول، من خلال ((الثقافة التي هي أخطر الجوانب الثلاثة للعولمة [الجانب الاقتصادي و السياسي و الثقافي] على الإطلاق، و [لهذا] لا بدّ لنا من توحيد القيم والرغبات و الحاجات و أنماط السلوك و النظر إلى الذات و إلى الآخر ، و غير ذلك من جوانب الثقافة و العلم و التعليم ، و ذلك للحفاظ على الهوية))⁽²⁴⁾، وإذا لم يكن ذلك واقعا ثقافيا في عقولنا و سلوكنا وحالا شعوريّة مستقرة في نفوسنا و في وجداناتنا ، ((فإنّما (أنا) مولعة بتقليد الغالب تسعى إلى تحويل سلبية صورتها إلى إيجابية محددة أطرها في الثقافة الغالبة ، و إنّما (أنا) مولعة باستلهاهم تاريخ غلبتها لتصنع صورة ذاتية تستمد إيجابيتها من قراءة سلبية لصورة الآخر الغالب))⁽²⁵⁾ . و الثقافة التي تنبعث من رحم الإسلام المتحرك هي التي تمنح الفرد المسلم وعيّا بهدف معين، ((فتصبح الحياة ذات دلالة و معنى، وهي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل وصف طبقات إلى أخرى، فإنّها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع و دوامه ، و ضمنا لاستمرار الحضارة))⁽²⁶⁾، و الوصول إلى بقاء المجتمع و استمرار الحضارة ، يبدأ كما يرى مالك بن نبي في كتابه (ميلاد مجتمع) من خلال التربية الاجتماعية⁽²⁷⁾، وترتبط هذه التربية بثقافة جمالية ، تخلق في نفس الفرد المسلم ((قابلية)) إلى ((الإحسان في العمل)) والفرد مجبول بطبعه إلى حبّ الجمال و ميّال بسجيته إلى التقرب من كل جميل ، سواء كان هذا الجمال ((رائحة أو حركة أو شكلا)).

((فبالذوق الجميل [يقول مالك بن نبي]...يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل و توخيا للكريم من العادات))⁽²⁸⁾.

و عن أثر الجمال في المجتمع ، يقول مالك بن نبي : ((ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة ، إذا ما عددناه المنبع الذي تصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع))⁽²⁹⁾، فكانت النتيجة أن انكفأت الكنيسة على نفسها ، و انحسر تأثيرها في كل مجالات الحياة ، حتى أصبحت طقوسا أكثر منها قيما ثقافية و حضارية، و لذلك تعثرت الحوارات بين الأديان ، و انبعثت من صميم ذلك الانغلاق على الذات ، توجهات فكرية

و فلسفية واديولوجية متطرفة، لا تعترف بخصوصية وهوية و ثقافة و حضارة الآخر، واعتبرت (نهاية التاريخ) هي الحضارة الغربية، (الإنسان الأخير) هو الإنسان الغربي كما يرى ذلك فرانسيس فوكوياما في كتابه ((نهاية التاريخ و الإنسان الأخير))⁽³⁰⁾،

((la fin de l'histoire et le dernier homme))، ففي هذا الكتاب ، يلاحظ القارئ ، بدءا بالعنوان، أن المؤلف ، يعبر ، من خلال وجهة نظره ، عن نخبة من المنظرين الاستراتيجيين ، وعن موقف اليمين السياسي المتطرف الذي يفجر الحروب هنا و هنالك في رقعة جغرافية ، تنتمي إلى الإسلام، ثقافة و حضارة و قيما اجتماعية و رؤى للحياة

والإنسان و الكون ، ولا شك في أن كل حضارة تقول: لا حضارة خارج الجنس الذي تنتمي إليه، ستتآكل ، حتما، لأنها تفتقد إلى الوسطية و الشمولية في نظرتها إلى الإنسان باعتباره هو الغاية المثلى ، والقول بتفاضل <الأجناس> وامتيازها قائم و شائع عند معظم الناس ، قديما و حديثا، عند اليونان و عند غيرهم، و لهذا خاضت هذه الأمم و الشعوب حروبا < مقدسة ! > ضد الآخر، دفاعا عن فكرة < امتياز الاجناس > ، و لكن الإسلام الذي

يقول قرآنه : >> يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ <<الحجرات\ الآية 13، والتعارف ، في دلالاته العميقة ، تعارف في القيم والأخلاق، وغيرها من القيم الإنسانية المشتركة التي ترفض الصدام ، و تدعو إلى التعايش بين جميع أبناء البشر⁽³¹⁾، وهذا ما دعا إليه مالك بن نبي.

والخلاصة أنّ الثقافة التي تنتمي قيمها إلى الإسلام، لا تتوجس خيفة من بقية الثقافات ، و لا ترى في حضارة الإنسان الغربي عدوًا يهدد وجودها لأن الثقافة الإسلامية تحمل في ذاتها عوامل القوة والمناعة والقابلية للتعايش مع الآخر في عصر أصبحت فيه ((العملة تختزل فرض الاتجاه الواحد ، و تعميم النسق الواحد للثقافة ، من خلال السيطرة على أدوات العملة وآلياتها التي تنقل إلى العالم الصور و المعاني والرموز والقيم والأنماط))⁽³¹⁾، من خلال مجموعة كبيرة من الوسائل التكنولوجية التي تخترق المجتمعات و الأوطان، و تتسرب إلى البيوت عبر البث التلفزيوني وبرامج الكمبيوتر و شبكة المعلومات الدولية ، وغيرها، ومهما كان الامر فلا بدّ من أن نعيش ثقافتنا من خلال سلوكنا أي من خلال الفعل العملي أو التطبيقي لا من خلال العقل المجرد، كما أشار إلى ذلك مالك بن نبي ، و الارتفاع بالخصائص التربوية و الثقافية والأخلاقية و الجمالية و الذوقية حتى يقع الانسجام والتناغم بين كل مظاهر القيم الثقافية التي ينتمي إليها الفرد المسلم.

وقد ركزت اليابان في نهضتها الثقافية و الحضارية على القيم البوذية و المبادئ الكونفوشية في مؤسسات التعليم قبل اعتمادها على القيم الثقافية الغربية الوافدة⁽³²⁾، و هذا فعل عملي، يَحْتَزِل طاقة دلالية هامة في فكر الإنسان الياباني، و هي تجربة، توافق فيها العقل المجرد مع العقل العملي، وهي معادلة ضرورية للنهضة، ولأن القيم الإسلامية الثقافية التي تحدّث عنها مالك بن نبي ، تعترف بالآخر، قيما ثقافية و هوية ، و لونا ولسانا و عرقا ، وتلك آيات من آيات الله في الكون، وفطرة، فطر

الله الناس عليها، والثقافة الأصيلة، هي تلك الثقافة التي لا تعادي الآخر، لأننا ، كما يقول نغوم تشومسكي : ((ككائنات إنسانية نحن نسلم بشكل طبيعي بما هو متشابه بين البشر و من ثم نبه إلى ما يميزنا و ذلك انطباع كامل عن كوننا بشر...نحن مختلفون و لغاتنا مختلفة جدًا ومجتمعاتنا مختلفة جدًا...))⁽³³⁾، وما قاله تشومسكي لا يضيف شيئاً إلى مسلمة جوهرية ،عنوانها :البشر مختلفون ولا يزالون مختلفين، ولكن الاختلاف لا يكون مدعاة لتسفيه عقل الآخر ، وبصفة خاصة ، إذا كان هذا العقل هو العقل العربي و الإسلامي ، يقول كوته Goeth : ((إن العقل العربي عاجز عن استخلاص القوانين والقضايا ووضع الفروض والنظريات، ومن ثم فإنه يمتنع على العقلية الإسلامية أن تنتج آراء علمية و مذاهب فلسفية))⁽³⁴⁾، و التاريخ الثقافي و الحضاري شاهد على أن العقل العربي و الإسلامي عقل يحمل في ذاته قابلية للابتكار و الإبداع إذا توفرت في بيئته الشروط الموضوعية ، وانسجم ((العقل المجرد مع العقل العملي كما يقول مالك بن نبي، وتوفرت <<الفعالية>> من خلال ذلك الانسجام، و تنبه الإنسان المسلم إلى أن عصرنا عصر الفعالية و الحركة والبدائل، إذا كانت هذه البدائل تجذر قيمنا الثقافية و الحضارية و تجذر هويتنا التي هي عنوان وجودنا و رمز أصلتنا ، ورافد من روافد الإسلام المتحرك الذي به كنا و به نكون و به سنكون، و بدون الإسلام المتحرك لن نكون، فهو الذي يشكل السمة الثقافية و الحضارية للفرد المسلم، و في آخر المطاف ، فإن مشكلة الثقافة من وجهة نظر مالك بن نبي ((هي في جوهرها مشكلة الأفكار ،...وليس يكفي مطلقاً أن تنتج أفكاراً، بل يجب إن نوجهها طبقاً لمهمتها)).⁽³⁵⁾

ويقول مالك بن نبي . أيضا - : ((فمفتاح المشكلة يكمن في وضع برنامج لتوجيه الثقافة، توجيهها يتفق و سمو الغاية التي تنشدها))⁽³⁶⁾، والمسلم ،مطالب، انطلاقاً، من سمو الغاية التي ينشدها أن يكون إسلامه إسلاماً متحركاً، ينسجم فيه العقل المجرد مع العقل العلمي حتى لا يفقد نشاطه فعاليته وديمومته

، ويظل، بسلوكه، قريبا من الروابط الإسلامية ، مجسدة في الأفكار و القواعد الأساسية ((ومن واجبنا] يقول مالك بن نبي[تصفية عاداتنا و تقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة و رمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحيّة و الداعية إلى الحياة))⁽³⁷⁾، فتنبلج من رحم ((تلك العوامل القتالة و الرمم التي لا فائدة منها)) ثقافة ، تقود الفرد المسلم إلى حضارة دائرة.

هوامش:

- 1 . مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة، عبد الصبور ،دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الرابعة عشرة، 2009م، الطبعة الرابعة، 1984م، ص82
- 2 . المصدر نفسه، ص87.
- 3 . المصدر نفسه، ص81.
- 4 . المصدر نفسه، ص82.
- 5 . المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- 6 . المصدر نفسه، ص86.
- 7 . المصدر نفسه، ص83.
- 8 . المصدر نفسه، ص81.
- 9 . المصدر نفسه، ص86.
10. المصدر نفسه، ص89.
11. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
12. المصدر نفسه، ص81.
13. المصدر نفسه، ص76.
14. المصدر نفسه، ص74.
15. المصدر نفسه، ص85.

16. المصدر نفسه، ص86.
17. المصدر نفسه، ص87.
18. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
19. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
20. سورة الرعد، الآية 11.
21. مجلة، الكلمة، مؤسسة دلتا للطباعة والنشر، العدد 74، بيروت، لبنان، 2012م، ص163.
22. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص21.
23. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
24. أحمد عبد الله العلي، العولمة و التربية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008م، ص47 .
25. نصر الدين بن غنيسة، عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر. العولمة، منشورات صفاق، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، 2012م، ص35.
26. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص86.
27. ينظر، مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، 2006م، ص75 وما بعدها.
28. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص82.
29. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
30. ينظر، فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ و الإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ص267 وما بعدها.
31. ينظر، مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص97 وما بعدها .

32. ينظر، نهضة اليابان، ثورة المايجي لإيشين، دراسات في التجربة الإنمائية. اليابانية، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، ص205 وما بعدها.

33. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص67.

34. المصدر نفسه، ص69.

35. نعوم تشومسكي، لقاءات و مقالات، ترجمة أسعد الحسين، دار نينوى للدراسات و النشر و التوزيع، دمشق، سورية، 2010م، ص81.

36. مجلة، دراسات عربية، العددان، 8، 7، بيروت، لبنان، 1988م، ص58.

37. . مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص71.

المصادر و المراجع:

. القرآن الكريم

أولاً: المصادر:

1. . مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، 1984م.

2. -، شروط النهضة، ترجمة، عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، إشراف، ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1979م، الطبعة التاسعة 2009م.

3. -، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1979م، الطبعة التاسعة، 2009م.

4. -، ميلاد مجتمع، ترجمة، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2006م .

ثانياً:المراجع:

1. نصر الدين بن غنيسة،عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة،منشورات صفاف، بيروت ،لبنان،منشورات الاختلاف،الجزائر،الطبعة الأولى،2012م
2. الأمين عبد الحفيظ بوبكر ، توجيه العلوم وفق المنهج الإسلامي،دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الاسكندرية،مصر،1996م.
3. فرانسيس فوكوياما،نخاية التاريخ و الإنسان الأخير،فريق الترجمة،فؤاد شاهين،جاسم قاسم،رضا الشايبى،مركز الانماء القومي،بيروت،لبنان،1993م.
4. محمد الجابلي، المقدس وغربة الانسان ،الدار التونسية للكتاب،الطبعة الأولى،2012م.
5. نعيم تشومسكي ،لقاءات و حوارات،ترجمة أسعد الحسين،دار نينوى للدراسات و النشر و التوزيع،دمشق،سورية،2010.
6. نصر الدين بن غنيسة،عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة،منشورات صفاف،منشورات الاختلاف،دار الأُمات،الرباط2012م.
7. نخضة اليابان،ثورة المايجي إيشين ،دراسات وأبحاث في التجربة الإنمائية اليابانية،شركة المطبوعات للتوزيع و النشر ،جامعة الأمم المتحدة،طوكيو،1985م.
8. أحمد عبد الله العلى، العولمة و التربية، دار الكتاب الحديث ،القاهرة،2008م.

ثالثاً:المجلات :

1. مجلة ،الكلمة،منتدى الكلمة للدراسات و الأبحاث،العدد2012،74م.
2. دراسات عربية، العددان7\8،بيروت،لبنان،1980م.